الفتح
صحيفة إسلامية علمية أخلاقية

العدد الخامس – ١٥ يوليو (تموز) ١٩٢٦

الطربوش

بحث في لفظه وتاريخه

- -

بقلم العلامة الجليل صاحب السعاد أحمد تيمور باشا

اقترحنا في العدد الماضي من صحيفة (الفتح) على العلامة الجليل والمؤرخ الكبير صاحب السعادة أحمد تيمور باشا أن ينوّر أفكار الجمهور بتاريخ الطربوش، وهل هو مأخوذ من اليونان كما يتشدق به الذين يلقون القول على عواهنه، فتفضل علينا سعادته بهذا المقال التاريخي العظيم الأهمية. ونحن ننشره مع الشكر لسعادته.

قال حفظه ا :

الطربوش لفظ فارسي الأصل محرف عن «سربوش» ومعناه غطاء الرأس بتقديم المضاف إليه على المضاف كقاعدتهم لأن «سر»، بفتح فسكون، الرأس، و«پوش» بضم الباء الأعجمية، الغطاء. وعربه المولّدون بلفظ «شربوش» بالشينين والباء العربية وأطلقوه على قلنسوة خاصة بالجند كانت تلبس بلا عمامة.ثم لما حدث هذا النوع الأحمر ذو الذؤابة سمته العامةُ أيضاً بذلك إلا أنها أبدلت شينه الأولى طاء فقالت فيه طربوش، وخصت الشربوش بغطاء قارورة التدخين المسماة بالشيشة وبالنرجيلة.

وقد ورد الشربوش بالشينين في عبارات للمؤرخين وأشعار للمولدين لا تحصى كثرة، كقول المقريزي في خططه عن أولاد شيخ الشيوخ: «وأما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين فإن الملك الكامل جعله أحد الأمراء وألبسه الشربوش والقباء». وكقول أبي شامة في الروضتين عن مدبر أمر الموصل لسيف الدين ابن أخي نور الدين الشهيد: «فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشه بين يديه». وفي الكامل لابن الأثير أن الكندهري[1] الفرنجي صاحب صور كان عاقلاً كثير المداراة والاحتمال، ومن ذلك أنه أرسل إلى صلاح الدين يستعطفه ويستميله ويطلب منه خلعة، وقال: «أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما منك محبة لك». فأنفذ إليه خلعة سنية منها القباء والشربوش فلبسهما بعكا.

ولم نقف على تغيير في لفظه إلا في ترجمة نجم الدين أبي الفضائل الفقيه الحنفي التركي من المنهل الصافي لابن تغري بردي في قوله عنه نقلاً عن تاريخ حلب لابن النديم: «فقيه حسن عارف بالفقه والأصول وكان يلبس لبس الأجناد القباء[2] والتربوش» هكذا في النسخة بالمثناة الفوقية، فإن لم يكن تحريفاً من الناسخ وكان عن لغة محكية فيه عندهم فهي أصل قول العامة الآن طربوش بالطاء ولكنه ورد في مواضع أخرى من المنهل الصافي بالشينين على المشهور منها قوله في ترجمة الملك الناصر داود صاحب حماة لما مثُلَ بين يدي الخليفة المستنصر العباسي ببغداد وحياه بإنعامه «وخلع عليه خلعة سنية وعمامة سوداء وجبة سوداء مذهبة، وخلع على أصحابه ومماليكه خلعاً جليلة وأعطاه مالاً جزيلاً وبعث في خدمته رسولاص مشربشاً من أكبر خواصه إلى الملك الكامل يشفع في الناصر المذكور». وورد (الشربيش) بالياء في أبيات لابن حجاج رواها له المحبي في كتاب ما يعول عيه في كلامه على (شؤم القز) وفسره أنه طائر يتشاءم منه، قال: «وكثيراً ما كان يتمثل به ابن حجاج في شعره كقوله:

يا سيدي عدوة ذي حرفة *
أقدم في الشؤم من القزّ
عمامتي كانت أميرية*
مليحة الشربيش والطرز
ولست بالباكي على فقدها*
فالخزي أولى بي من الخز

وقد يتبادر أنه تغيير آخر في لفظه بقلب واوه ياء، ولكنا نرجح أنه أراد به حلية مذهبة أو مرصعة كانت تزين بها العمائم، معرب (سرپيچ) بالباء والجيم الأعجميتين.

وصفة الشربوش على ما في خطط المقريزي أنه كان شيئاً يشبه التاج كأنه شكل مثلث يجعل على الرأس بلا عمامة. وفي تاريخ ابن الفرات أو أول من زاد في طوله

---

[1] اسمه عند الإفرنج «الكنت هنري».

[2] كان القباء خاصاً بالجند والأمراء، أي كالمعروف اليوم بالسترة العسكرية، وكان الصاحب بن عباد يلبسه بعد توليه الوزارة انتساباً معها إلى الجندية.

الأمير عز الدين مسعود صاحب الموصل وحلب المتوفى سنة ٥٢١ ابن قسيم الدولة آق سنقر البرسقي، ونص عبارته: «وهو أول من جعل القباء يزر على الصدر وكان قديماً يزر تحت الابط على جانب، وأول من استخرج الشربوش المطاول[3]». ومما يدل على شيوعه بهذا الطول بعد ذلك حتى كانوا يشبهون به الشيء الطويل قول ابن الناسخ في مصباح الدياجي في ترجمة الخبوشاني: «وكان من عادته إذا درس بالعجم يخرج وعلى رأسه شيء من كالقلنسوة المرصعة، فلما وصل إلى مصر وجدهم بخلاف ذلك فلبس لبسهم فجلس يوماً يطالع والقلنسوة على رأسه وهي طويلة كالشربوش فلما توسط الحلقة ورآه أهلها لم يبق فيها إلا من تبسم». والخيوشاني هذا كان في زمن صلاح الدين الأيوبي، والظاهر أنهم تبسموا لأنهم رأوه في غير زي العلماء المألوف لهم في ذلك الزمن فاستغربوه منه.

ثم بطل استعمال الشربوش في الدولة الجركسية وأحدثوا نوعاً من القلانس سموها بالطواقي[4] ولبسها رجال الدولة وجنودها قال المقريزي «وصاروا يلبسون الطاقية على رؤوسهم بغير عمامة ويمرون كذلك في الشواطئ والأسواق والجوامع والمواكب لا يرون بذلك باساً بعد ما كان نزع العمامة عن الرأس عاراً وفضيحة. ونوعوا هذه الطواقي ما بين أخضر وأحمر وأزرق وغيره من الألوان. وكانت أولاً ترتفع نحو سدس ذراع ويعمل أعلاها مدوراً مسطحاً، فحدثت في أيام الملك الناصر فرج منها شيء عرف بالطواقي الجركسية يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثي ذراع وأعلاها مدور مقبب وبالغوا في تبطين الطاقية بالورق»، إلى أن قال: «إنهم جعلوا من أسفل العصابة المذكورة زيقاً من الفرو الأسود في عرض نحو ثمن ذراع يصير دائراً بجبهة الرجل وأعلى عنقه وإنهم بقوا على استعمال هذا الزي إلى زمنه وهو من أسمج ما عانوه».

ولم يكن الشربوش أول ما أطيل من القلانس في الدولة الإسلامية، بل كان لهم قبله الطويلة ، وكان الخلفاء وغيرهم يلبسونها ويعتمون عليها. ويذكرون في كتب الأوائل أن أول من لبس القلانس الطوال هشام بن عبد الملك. وقد لبس الإمام مالك رضي ا عنه الطويلة واعتم عليها. قال ابن فرحون في الديباج: «قال مالك: قلت لأمي: أذهب فأكتب العلم. فقالت: تعالَ فالبس ثياب العلم. فألبستني ثياباً مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها ثم قالت: اذهب فاكتب الآن».

وذكر في موضع آخر أن الإمام كان إذا خرج للتحديث اغتسل وتطيب وليس ثياباً جدداص وتعمم ووضع على راسه الطويلة وخرج إلى الناس خاشعاً. انتهى.

وفي خلافة أبي جعفر المنصور زاد فيها سنة ١٥٣ فجعلها مفرطة الطول على ما في الكامل لابن الأثير، وذكر الذهبي في تاريخه أنه ألزم رعيته بلبسها هذه السنة، فقال أبو دلامة:

وكنا نرجي من إمام زيادة*
فزاد الإمام المصطفى في القلانس[5]
تراها على هام الرجال كأنها*
دنان يهود جلِّلَتْ بالبرانس

وفي (الأغاني) أنه أمر أصحابه بلبس السواد وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلها وأن يعلقوا السيوف في المناطق ويكتبوا على ظهورهم (فسيكفيكهم ا وهو السميع العليم)، فدخل عليه أبو دلامة في هذا الزي فقال أبو جعفر: ما حالك؟ قال: شر حال وجهي في نصفي وكتاب ا وراء ظهري. فضحك منه وأعفاه وحده من ذلك. وفي الكامل لابن الأثير أن المتوكل لما أحضر ليبايع بالخلافة ألبسه القاضي أحمد بن أبي دواد الطويلةَ وعممه عليها وقبّل ما بين عينيه وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة ا وبركاته. وذكر المسعودي في مروج الذهب أن المستعين أول من صغّر من طولها بعد أن كانت كأقباع القضاة وأول من وسع الأكمام فجعل عرضها ثلاثة أشبار.

وبعد، فقد تبين من وصف الشربوش أنه لم يكن يشبه طربوش اليوم في الهيئة والحجم، وإن وافقه في الاسم والغاية. أما اللون فلم نقف على شيء عنه في الشربوش وإنما ذكروا عن الطواقي الجركسية أن بعضها كان أحمر كما مرّ. وذكر ابن فضل ا في مسالك الأبصار عن الكلوتات[6] أنها

[3] المطاول بمعنى الطويل من كلام العامة كما في شرح القاموس للزبيدي.

[4] تطلق العامة (الطاقية) الآن على كمة خفيفة لاصقة بالرأس تعمل من البز وغيره.

[5] هي ورواية ابن الأثير ومحاضرة الأوائل، والذي في الأغاني (فجاد بطول زاده في القلانس)

[6] الكُلوتة بضم الكاف واللام المخففة، لفظة فارسية تطلق عند الفرس على نوع من أغطية الرأس التي للصبيان ويدل على استعمالها بعد ذلك بالتخفيف ورودها به في الشعر كقول محيي الدين بن قرناص:
تبدي في الكُلوتة والعمامه
كبدرٍ تحت برق في غمامه
وضبطها علي مبارك باشا في خططه بتشديد اللام على خلاف المعروف فيها. ويقال لها: الكلفتة أيضاً بالفاء. وكانت صفراء من لباس الدولة الأتابكية بالموصل والشام فلما غيّر صلاح الدين الأيوبي رسوم الفاطميين لبسها وهو بدء اتخاذ اللون الأصفر شعاراً للمملكة المصرية في اللباس والأعلام. ثم أحدث الأشرف خليل بن قلاوون الاعتمام عليها فجاءت في غاية الحسن.

طواق صغيرة غالبها من الصوف المطلي بالأحمر. وفي زبدة الصحائف في سياحة المعارف لنوفل بن نعمة ا الطرابلسي أن السلطان عثمان الأول كان يعتم على برك خراساني من الجوخ الأحمر فلما تولى ابنه أورخان جعل عمامة السلطان وعظماء الدولة على برك أبيض وخص الأحمر بطوائف الجند. والذي في التواريخ التركية أن قلانس السلاطين ورجال الدولة وجنودها كانت بيضاء سموها بالبورك أو البرك – بضم الأول- وسموا بورك ضباطهم الإسكوف ثم أضيف إلى البورك ذيل طويل نيط بأعلاه منديلاً من الخاف. ولكن حدث أيضاً إلباس الجنود والضباط في بعض الفرق قلانس حمراء فكان آغا اليكيجرية يعتم على قلنسوة بيضية من الجوخ الأحمر ومثلها عمامة رئيس المائة الملقب وقتئذ بالجورباجي إلا أنها كانت مدورة. وكان رئيس فرقة الحراس بالقصور والحدائق المسمين بالبستانيين (بوستانجيلر) يلبس قلنسوة حمراء طويلة تنثني من أعلاها إلى خاف. ورئيس الكيان كان يعتم على قلنسوة حمراء. وكان لرئيس النقابين (اللغمجية) قلنسوة حمراء من المخمل (القطيفة). وكان القواصة، وهم حرس الوزراء، يعتّمون على فس (أي طربوش) أحمر بذؤابة زرقاء ويلبسه أيضاً جاويش عَلَمَة وفرقة من عساكر البحر تسمى (قاليونْجِيلر) أنشئت سنة ١٠٩٣ وأخرى تسمى (جبلاقْلر) إلا أن هذه كانت لا تعتم عليه[٧]، وغير ذلك مما تركنا ذكره، وكل هذا في الجيش القديم قبل إحداث النظام الجديد. وقد راجعنا صور القلانس في كتاب (عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكريه سي) الذي ألفه محمود شوكت باشا في تاريخ الجندية العثمانية وألحقه بصور ملونة لطوائف الجند وملابسهم إلى زمن السلطان عبد الحميد الثاني فرأينا بورك رئيس البستانيين الأحمر الطويل المنثني من أعلاه إلى خاف هو عين الطربوش القديم الذي كان بهذه الصفة. والظاهر أن الجنود اختصوا بلبسه بعد ذلك وسمي بالطربوش على ما يؤخذ من قول الجبرتي في حوادث سنة ١٢٣٠ «قلد الباشا عبد ا أغا المعروف بصاري جله وجعله كبيراً على طائفة الينكجرية[٨] أيضاً وجعل على رأسه الطربوش الطويل المرخي على ظهره كما هي عادتهم هو وأتباعه». وقال في حوادث سنة ١٢٠٠: «وركب قائد أغا بعد صلاة الجمعة وعلي أغا خازندار مراد بك سابقاً وصحبتهم جملة من المماليك والعسكر وهم بالطرابيش وبيدهم مكاحل[٩] البندق» ولكن لم يتعرض هنا لطوله. وأول ذكره للطرابيش في تاريخه قوله في الفتنة التي وقعت بمصر مدة باكير باشا المتولي عليها سنة ١١٤٧: «ففتحوا الخزانة وخرج منها جماعة بطرابيش وهم شاهرون السلاح». وقال في ترجمة الحاج صالح الفلاح المتوفى سنة ١١٦٧: «وكان يركب حماراً ويعتم عمة لطيفة على طربوش».

وتذكر التواريخ التركية أن العمامة المسماة بالمجوزة عند العثمانيين كانت قلنسوتها تكسى من الظاهر في أطرافها الثلاثة بكسوة حمراء تشبه الفس (أي الطربوش) وكانت لا تختلف عن السليمية إلا بهذه الكسوة، والسليمية عمامة أحدثها السلطان سليم الأول محاكياً بها تاج كيخسرو ملك فارس، فلبسها السلاطين من بعده إلى زمن إلغاء اليكيجرية. وفي عصر السلطان سليم المذكور حدث بفارس إلباس الجند قلانس حمراء من الجوخ، ففي قلائد العقيان للعبيدي أن الشاه إسماعيل (الصفوي) ملك فارس ألبس عساكره تاجاً أحمر فسموا لذلك (قزلْ باش)[١٠]. وفي السنا الباهر للشلي أن الذي فعل ذلك الشيخ حيدر أبو الشاه إسماعيل لما قتل أبو الشيخ جنيد واجتمع أصحابه عليه وحسنوا له الجهاد فألبسهم تيجاناً حمراً من الجوخ وسماهم الناس لذلك (قزلْ باش). وقد لبس أهلُ الأندلس القلانس الملونه من الصوف ومنها الحمراء وكانوا يسمونها بالغِفارات بكسر الأول وتخفيف الفاء. قال المقري في نفح الطيب عن زيّهم: «ولا نجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ

فقول ابن فضل الله أنها كانت حمراء يُحمل على ما كان يلبسه غير أمراء الدولة. وفي كتاب (الألفاظ الفرنسية الدخيلة من العربية والفارسية والتركية) لـِبهان المطبوع بباريس سنة ١٨٦٦م أن الكَلُوتة (بفتح فضم) كمة من النسيج الموصلّي تلف عليها العمامة عند الأمم الشرقية ويسميها الأتراك بالطربوش، وإن لفظة كلوت التي يطلقها الفرنسيس على كمة صغيرة خاصة برجال الكنيسة تستر ذروة الرأس دخيلة من العربية (أي المولدة) في رأي كترمير وقد أورد حجته على ذلك فلتراجع فيه.

[7] شاهد الجبرتي هذا الطربوش بعمامته على رؤوس جنود البحر العثمانيين ووصفه في مواضع من تاريخه منها قوله عن ملابس حسن باشا القبطان الواصل إلى مصر سنة ١٢٠٠ لتأديب أمراء الجراكسة: «وفي يوم الأربعاء ركب حسن باشا وذهب إلى بولاق وهو بري الولاة وعلى رأسه هيئة قلبق من جلد السمور ولابس عباءة بطراز ذهب وكان قبل ذلك يركب بهيئته المعتادة وهي هيئة القباطين وهي فوقانية جوخ صاية بدلاية حرير على صدره وعلى رأسه طربوش كبير يعمم بشال أحمر».

[8] الصواب اليكيجرية، والكاف ينطق بها نوناً، ومعناها العسكر الجديد لأن معنى يكي (يني) الجديد ، وجري العسكر وهي طائفة من الجند أحدثها السلطان أورخان وأباها السلطان محمود الثاني، والعامة تسميها الانكشارية.

[9] المكاحل جمع مكحلة وهي المسماة اليوم بالبندقية.

[10] معنى قزل بكسرتين أو قزيل بالياء الأحمر بالتركية، ومعنى باش الرأس، والمراد ذوو الرؤوس الحمراء.

المعظّمون، وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً، والصفر مخصوصة باليهود». وجاء في معجم الملابس لدوزي عن الغِفارة أن أهل الأندلس فيما يظن كانوا يريدون بها ما يسمى الآن في المغرب بالشاشية (أي الطربوش) لأنها مثلها تعمل من الصوف الأحمر وتلفّ عليها العمامة عادة. وقال في كلامه على الطربوش إنه يسمى في مصر والمغرب بالشاشية[11] وكانوا يسمونه في الأندلس بالغفارة.

فيعلم من هذا أن القلانس الحمراء على اختلاف أسمائها وهيئاتها كانت من لباس الأمم الإسلامية شرقاً وغرباً منذ زمن قديم، وأن الكُلوتة عند العراقيين والشاميين والمصريين هي ما يسميه الأتراك بالطربوش على ما نقلناه عن يهان في الحاشية المتقدمة. وأن البورك الأحمر الطويل المنثني من أعلاه إلى خلف أو الطربوش كما يسميه الجبرتي كان من لباس الجنود العثمانية، ويفهم من سكوت المؤرخين عن أصله أنه من ابتداع العثمانيين أو وليد تلك القلانس بالتغيير فيها والتهذيب. ولكن المشهور على الألسنة اليوم أنهم اقتبسوه من اليونان، وقد يكون كذلك، غير أننا لم نعثر فيما اطلعنا عليه على نص تاريخي يؤيده بالتصريح أو الإشارة. وقد تعدى هذا القول إلى الطربوش الآخر ذي الذؤابة فزعم بعضهم أن السلطان محمود الثاني لما غيّر ملابس الجند اختار لهم الطربوش اليوناني، وهو زعم يشهد التاريخ ببطلانه، وسنرى في النصوص الآتية أنه ألبسهم الطربوش التونسي، وأن أول صنعه كان في فاس.

وإذا رجعنا إلى المعاجم الإفرنجية نرى دوزي لا يتعرض لأصل الطربوش في معجم الملابس،ولكنه يقول عن الفس، وهو اسم الطربوش عند الترك، أنه سمي باسم مدينة فاس، ونرى لاروس يعرف الطربوش (Tarbouche) بقوله: «قلنسوة للترك واليونان، حمراء اللون، ذات ذؤابة من الحرير الأزرق» ولا يزيد على ذلك. ثم نراه يقول في لفظ (فس) إنه سمي باسم مدينة فاس بالمغرب لصنعه بها وهو قلنسوة من اللبد الأحمر قد تكون لها ذؤابة غليظة من الحرير أو الصوف شاع استعمالها عند الأتراك رجالاً ونساء. والذي في المعلمة الفرنسية الكبيرة عن الفس أنه نوع من القلانس الحمراء أو الزرقاء[12] يصنع من اللبد أو الجوخ ويقال له القلنسوة التركية واليونانية لأنه خاص بالمشرق[13] ولا سيما في البلاد التركية. وقد سمي باسم أول مدينة صنع بها وهي مدينة فاس بالمغرب وكانوا يصبغونه بالقرمز الذي يجنى من ضواحيها. ولما كثر استعماله صنعوه أيضاً بالبلاد التركية والفرنسية والإيطالية وحمل منها إلى البلاد الشرقية، ثم قل صنعه أخيراً عند الترك ولم يبق له إلا بضعه معامل بالقسطنطينية، وانتقلت صناعته إلى النمسة ومنها كثر تصديره إلى بلاد الترك واليونان ومصر وتونس ومراكش. انتهى.

وقال يهان في معجم (الألفاظ الفرنسية الدخيلة) أن الفس سمي باسم فاس قاعدة مملكة مراكش لأنه يصنع بها وله سوق نافقة في البلاد التركية وإمارة تونس، وهو على نوعين أحمر للرجال وأبيض للنساء. وعرّف ليتريه الطربوشَ في معجمه الاشتقاقي الفرنسي بأنه قلنسوة حمراء تصنع في تونس، وقال عن الفس إنه سمي باسم فاس لصنعه بها. ولعل القارئ يرى معي أن قولهم قلنسوة للترك واليونان أو القلنسوة التركية واليونانية لا يفيد بوجه من الوجوه يونانية أصله بعد ما ثبت أن أول صنعه كان في فاس، وإنما قصارى ما فيه أن اليونان لبسوه كما لبسه الأتراك.

وكذلك إذا رجعنا إلى المعاجم التركية نراها تقول عن الفاس أن الفس فتح فسكون، إنه سمي بالمغرب الأقصى وهو لباس للرأس أحمر اللون عمّ استعمالُه في المملكة العثمانية وبعض بلاد إسلامية أخرى. وجاء عنه في (القاموس العثماني) المصور أنه لباس يعده التعمانيون من مفاخرهم.

والخلاصة أن الطربوش القديم الطويل المنثني إلى الخلف تركي الأصل كغيره من القلانس العثمانية على ما يؤخذ من سكوت المؤرخين عن أصله، وقد يكون مقتبساً من اليونان على ما تتداوله الألسنة استنتاجاً من كونهم لبسوه لا اعتماداً على نص تاريخي فيما نعلم. وأن الطربوش الآخر ذا الذؤابة المسمى عند الترك بالفاس أو الفس مغربي الأصل بدئ بصنعه في مدينة فاس فسماه الترك باسمها. وأنه كان يصنع أيضاً بتونس على ما يقول ليتيريه[14] وكان يصدر من

---

[11] الشاشية اسم الطربوش عند جميع المغاربة إلى الآن نسبة إلى شاش العمامة الذي يلف عليه، وقد استعملت هذه اللفظة في بعض العصور بمصر أيضاً.

[12] هذا وهم خلط فيه الكاتب بين لون الطربوش ولون ذؤابته.

[13] لا يخفى أنه مستعمل أيضاً بالمغرب مكان صنعه فكان الأولى أن يقال لأنه كثير الاستعمال بالمشرق.

[14] بل لم يزل يصنع بها إلى الآن. وذكر العلامة الشيخ محمد بيرم التونسي في رحلته صفوة الاعتبار أن معول الصناع في حاضرة هذه المملكة كان على صناعته فقال: «وأما صناعة الشاشية فإنها كانت هي عيان أكثر أهل الحاضرة ومنذ صنعت الشاشية بالمعامل في أوربا رخصت. ولا زال صناعها في

المغرب إلى البلاد الشرقية فنفقت سوقه في المملكة العثمانية ولبسه رعاياها وبعض جنودها إلا أنه لم يعم ويصبح لباس جميع رجال الدولة وجنودها إلا في عصر السلطان محمود الثاني فإنه لما غير ملابس (العساكر المنصورة المحمدية) وهم جنود النظام الجديد الذي أحدثه، ألبسهم الطربوش التونسي ولبسه هو ورجال دولته، واقتدى الناس به في لبسه. قال محمود شوكت باشا في كتاب (عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكريه سي) أنه لما ألبس الجنود الأقبية والسراويل الضيقة نظر فيما يلائمها من ألبسة الرأس فوقع الاختيار على الطربوش التونسي ذي الذؤابة الزرقاء ولكن ما كان أعلاه أوسع من أسفله جعلت له بطانة من المقوى تقيه من التكسر والتهدم والتهدل.

سنة ١٣٤٥ للهجرة

دخل التاريخ الهجري المبارك في عام ١٣٤٥ يوم الأحد الماضي (١١ يونيو)، فنضرع إلى ا سبحانه أن يجعله عام خير على هذه الأمة، وأن يسدد خطاها في طريق الهداية والقوة والفلاح.

والتاريخ الهجري هو تاريخ إعلان الدعوة الإسلامية واستعلائها وانتشار أنوارها، بانتقال النبي صلى ا عليه وسلم من مكة إلى المدينة، والتحاق أصحابه من قريش به ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم من الأنصار سلالة الأوس والخزرج.

وكان وصول النبي صلى ا عليه وسلم في هجرته هذه إلى (قباء) ضاحية المدينة المنورة يوم الاثنين ٨ ربيع الأول من السنة التي عدت بعدئذ –أي في زمن أمير المؤمنين عمر الفاروق رضوان ا عليه- السنة الأولى من سني الهجرة التي دخلنا الآن في سنتها الخامسة والأربعين من القرن الرابع عشر. ويوم ٨ ربيع الأول هذا يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م، ودخل النبي صلى ا عليه وسلم المدينة بعد أربعة أيام (١٢ ربيع الأول – ٢٤ سبتمبر).

وإنما اختار الصحابة رضي ا عنهم الابتداء بغرة المحرم من سنة الهجرة ولم يبتدئوا من يوم وصوله إلى قباء أو إلى المدينة لأن غرة المحرم كانت معدودة عندهم بداية السنة القمرية، والمحرم هو الشهر الأول الذي يأتي بعد موسم الحج من كل عام.

ومن الكلمات المأثورة عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي ا عنه في اتخاذ الهجرة مبدءاً للتاريخ الإسلامي قوله –جزاه ا ُ عن الإسلام والإنسانية أفضل الجزاء-: «إن الهجرة فرقت بين الحق والباطل، فأرخوا بها».

فجدير بكل مسلم أن يضع أمام عينيه في كل وقت هذه الحادثة المباركة التي فرّق ا بها بين الحق والباطل، وأن يعمل كل رجل منا وكل امرأة على إحياء هذا التاريخ بما أحسن به الإسلام إليها في نحو أربعة عشر قرناً، وما كان له من أثر في تهذيب النفوس ونشر العلوم وإقامة معالم العمران. أعاده ا بالخير والعز والسعادة.

بين التطور والطفرة

قالت جريدة الأهرام في مقالةٍ افتتاحية:

«منذ عهد أثينة ورومة إلى اليوم –أي منذ ألفت الحكومات المنظمة قوانين منظمة إلى هذه الساعة- كانت الأمم والشعوب بين أمرين:

الأول: الثورة، وهي الحركة العنيفة التي تقتلع بعنفها وشدتها وغلاظتها وجفائها كل شيء موجود ، لتبني بناء جديداً، كالبيت يهدم ليشيد في مكانه بيت جديد في كل شيء. وهذا ما يسمونه بالانقلاب الذي يظهر التُرك به في هذه الآونة بعد البولشفيك، مع معرفتنا أن الثورة –كما قال جان جاك روسو-: "جواد يجفل ويثير وراءه الغبار، فلا تحاول أن تدركه أو أن تقف في وجهه، بل دعه يأخذ شوطه حتى يوقفه الكلال والتعب، فتقبض على ناصيته". ومع معرفتنا أن الثورة إذا شبت نارها أكلت كل شيء، فإذا فرغت من ذلك أكلت الذين أوقدوا نارها، ثم خمدت.

تلك هي الطفرة، والطفرة في نظام الطبيعة محال.

والثاني: التطور والتحول... وهذا يوصل الأمة إلى مآربها وأغراضها بلا عنف ولا تعب ولا نصب، فهو ابن الزمن، ومتى كان كذلك تطلب التدرج مع الزمن، وهذا النوع من الإصلاح هو الذي يتفق مع عقيدة الأمة ومداركها، بل هو الذي يتفق مع مصالحها ورقيها، ومع مقدرتها المالية والاقتصادية والصناعية والتجارية.

تونس متمسكين بالآلات القديمة وهي تكلفها غالية، فلا زالت في تناقص إلى أن كادت أن تكون مقصورة على أهل القطر وقليل من غيرهم وبقي من حوانيتها نحو ثلاثين أعني الذين يخدمون حقيقة بعد أن كانت حوانيت هذه الصناعة تبلغ نحو ألف وبسبب ذلك بقي أكثر الناس في الحاضرة بلا صناعة».

هل من عطوف يرحم الإسلام ويأخذ بيده اليوم

لعالم جليل من علماء الأزهر الشريف

أتناول القلم ويدي ترتعش، وأعصابي تضطرب، والنفس حزينة، والقلب موجع، والعين تبكي –أعاذك ا مما يبكي منه الرجال- والغم يحيط بي من كل مكان، حتى ضاقت علي الأرض بما رحبت، وضاقت علي نفسي: لا لفقد الأولاد ، ولا لضياع مال، ولا لمرض معضل لازم بدني، ولا لديون أحاطب بثروتي، ولا لعدو تمكن من الكيد الشديد لشخصي، كل ذلك لا يصل بي إلى ما وصفت، فإن الدنيا وكل ما يتعلق بها أهون من أن تؤثر على الرجل الذي ذاق حلاوة الإيمان، إنما كا بي ما ذكرت لما حل بالإسلام من نكبات، ونزل به من رزايا ومحن، وأنا أراه بعيني يتحرك حركة مذبوح وليس له من ولي ولا نصير، وهو الدين الذي تكفل بصلاح الأشباح والأرواح، والتزم لمن يدين به بسعادة الدنيا والآخرة. دين السماحة والمروءة والنجدة والكرم والحلم، دين المدنية الصحيحة والحضارة التي لا يطرأ عليها يوماً تزييف. الدين الذي أخذ بيد العقل من ظلمات سجن الجهل وطار به إلى أنوار آفاق العلم الذي يأبى أن يكون نتيجة إلا لمقدمات يقينة. دين حسبك أن تعلم أنه دين من لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. دين كان جبريل – وهو جبريل- ربما ينزل من السموات إلى الأرض من أجل تبليغ جملة واحدة منه. دين لاقى الأهوال في سبيل الدعوة إليه أفضلُ عبد رآه بعينه هذا الوجود. دين لا يعلم إلا ا كم في سبيل تأييده ونصره أريقت دماء زكية غالية جادت بها رخيصة هينة خير أمة أخرجت للناس. دين كانت تهتز أركان المعمورة ويظلم جوها وتحتجب سماؤها إلى أشير إليه من أعدائه إشارة تشعر بإهانته. دين بلغت العناية الإلهية بالدعوة إلى حبه والتفاني في نصره وحراسته أن بشّرت كل من يقتل من سبيله ومن أجل تأييده والذود عن حياضه أنحياته تردّ إليه بمجرد أن يفارق هذه الحياة يتمتع ألذ وأهنأ تمتع بما يرزقه ا تعالى فرحاً سروراً، فكأنه تعالى يقول لمن يستشهد في سبيل هذا الدين: بلغ من كرمك أن بذلتَ حياتك في سبيلنا فجزاء وفاقاً نرد عليك حياتك أحسن وأفضل مما كانت، وتركتَ – بموتك هذا- لذات منغصة وقتية، فعوضناك منها لذات سرمدية لا يشوبها كدر ولا تُهدد بزوال.

هذا الدين – الذي ما تقدم بعض ما يدلك على قدره- وصل اليوم إلى حالة لا يسع المؤمن أمامها إلا أن يكون كما وصفت نفسي في طالعة هذه الكلمة حينما تناولت القلم لأكتبها. ولماذا لا يكون المؤمن كذلك وهو يرى بيد أعداء الإسلام وأهله معاول أي معاول، وهجم الجميع عليه هجوم العدو الألد، وليس لهذا الهجوم نتيجة إلا الإتيان عليه من أساسه وليس له من صديق ولا حميم يقف بجانبه يصد عنه تلك الهجمات العنيفة...

أما الأعداء فرأوا أنجع وسيلة للقضاء عليه أن يقضوا على أهله وناصريه، ومتى انتهى المؤيد انتهى المؤيد بالضرورة. لذلك عمل القوم ووصلوا إلى قهر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها قهراً، أصحبوا معه ميتين في صورة أحياء. وكيف لا يكونون ميتين وقد غدوا مقبوضاً عليهم بيد من نار أينما كانوا ومتى كانوا، وبذلك زالت شخصيتهم وانحلت رابطتهم وصاروا لا حول لهم ولا حيلة. وهل للعبد مع سيده حول؟ وهل من ذلك حاله يستطيع أن يدفع الغارة عن دينه أو نفسه أو عرضه؟ اللهم لا. ثم لا! ولما كان هذا هو الجواب، وهو الحقيقة الملموسة المحسة، لم ير القوم بأساً أن يمضوا في عملهم غير حاسبين للمسلمين أي حساب، وهل يحسب للميت حساب؟ لذل ترى القوم حشروا ما حشروا من قسسهم وأرباب الدهاء الدين فيهم، ورموا بهم جهات المسلمين: يبشرون بينهم بدينهم، ويطعنون على الإسلام وعلى من جاء بالإسلام. كل ذلك نهاراً جهاراً، بلا أدنى خوف ولا وجل، لأنهم يعلمون أن دولهم وراءها بعددها وعددهم، فحيثما شرقتَ في الأرض أو غربتَ تجد هؤلاء المبشرين في جد وكد فيما له وظفوا، ولا تهاب أممهم أن تصرف عليه الآلاف والملايين.

ولم يقتنع القوم بهؤلاء المبشرين المتنقلين، بل استت في كل جهة مدارس ومستشفيات ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب (تبشير مقيم). أما المستشفيات فالتبشير فيها بطريق إلقاء المواعظ وخطب على المرضى العوام المساكين الذين لا يميزون الغث من الثمين، فيقوم بينهم الخطيب ويلقي عليهم من الشبه في دينهم مالا سبيل لهم على رده، ليبغضهم فيه حيث أنه موضع تلك الشبه، فإذا أنس منهم ميلاً إليه أخذ ينمنم ويزخرف في دينه ويرغب بما أوتي من قوة بيان. والمرضى ضعاف عن الرد من جهتين: جهة احتياجهم إلى التداوي فلا يردون وإلا طردوا، وجهة جهلهم. ولا ينتهي مرضهم إلا وقد ارتدوا

عن دينهم إن لم يكن علناً فسراً، أو على الأقل يترددون في دينهم فلا يكون حبهم وغيرتهم له كالأول، وهي نتيجة ليست بالهينة. هذا هو المقصود بالمستشفيات التي تفتح مجاناً بين المسلمين، وليس المقصود كما يقولون هو رحمة المرضى والشفقة عليهم مما ألم بهم من الأمراض، فإن هذه دعاوى أصبحت لا تقبل عند من عرف هؤلاء الناس ومقاصدهم.

وأما المدارس فطريق التبشير فيها التعرض في أثناء الدروس للدينيات، والكلام فيها على النحو الذي ذكرنا في المستشفيات، والقارئ يعرف من هو التلميذ الصغير وما مبلغ تأثره بما يلقيه عليه معلمه وأستاذه، ولذلك يتخرج أبناء المسلمين الذين تعلموا في تلك المدارس وأنت لا تفرق بين أحدهم وبين المتعصب من المبشرين، فيكون كارثة على الإسلام وعلى أهل الإسلام. ولقد سمعتُ من صديق لي يحكي عن ابنتي صديق له تعلمتا في تلك المدارس أن اباهما نصح لهما يوماً فقال لهما: تعودا الخوف من ا يا بنتي! فقابلا كلامه هذا بالسخرية وصارتا تلتفتان يميناً وشمالاً ووراء وأمام وفوق وتحت وتقولان له: أين ا ؟ إنك تقول ليس له مكان، كيف موجود لا يكون بلا مكان؟ يظهر يا أبانا أن إلهك الذي تقول عليه ليس إلا خرافة (سبحان ا) إنما الإله حقاً سيدنا عيسى ابن مريم (سبحان ربنا)! فدهش الرجل لكلام بنتيه ومنعهما من الذهاب إلى مدرستهما ولم يكن يقع في حسبانه أنهما يصلان إلى هذه الدرجة. ولكن ماذا ينفع منعه وقد كان مالا يمكن نزعه من نفسيهما وقد صادف مكاناً خالياً فتمكن. ذلك الذي يكون في الدروس وهناك طريق آخر للتبشير في تلك المدارس هو أن يدرب أبناء المسلمين على الوقوف مع غيرهم وقت صلاتهم، فيدعون كما يدعون، ويقولون من الكفريات في دعائهم ما يقولون، حتى يصير ذلك عادة للتلميذ المسلم فيرسخ الكفر بقلبه وهو لا يشعر. ولعلك تتبين الطالب الذي تعلّم في تلك المدارس بكلمات ينطق بها في بعض الأوقات من كلمات صلواتهم وهم يتعلمون. وعلى كل حال، تلك المدارس من المعاول القوية في يد أعداء الدين، والناس عنها غافلون. وكذلك المستشفيات. وبله بالمرء أن يفهم أن القوم فتحوا تلك المدارس بيننا خدمة إنسانية وأخذاً بيد أمة تورطت في الجهل إلى حد أصبحت معه تحتاج إلى نصير رحيم يسل سيوف العرفان ويحمل على ذلك الجيش الخبيث جيش الجهل فيقضي عليه القضاء الأخير. هذه كلمات يقولونها ولكن أصبح ما يفهم منها معروفاً. فالقوم بتلك الطرق التبشيرية يريدون أن يحتلوا قلوب الناس كما احتلوا أرضهم، لما أنهم يرون أن احتلال الأرض لا ينفع بدون احتلال القلوب.

ولما أن كانوا يعرفون أن في كل أمة رجالاً فيهم صلابة قد لا يؤثر فيهم أي مؤثر احتالوا أن يرموهم بسهام إبليس التي لا تطيش وهي النساء، والقوم لديهم من هذا النوع ما يستفز الساكن الوقور. لذلك تجدهم في أي مكان نزلوا به يصوّبون هاتيك الفاجرات ويتركونهن رائحات غاديات بين الناس الذين لا عهد لهم بهن، فيشتغلون بهن عن نسائهم فتضطر نساؤهم إلى قضاء شهواتهن، ومن هنا تذهب الأخلاق ويرتحل الحياء والدين. ومن أراد أن يفهم هذا فلينظر نظرة بسيطة إلى عواصمنا وما شابهها.

وعلى كل حال، حرب القوم لدين الإسلام عنيفة جداً على مرأى ومسمع من أهله, ولكن قد عرفت مبلغ أهله ، وليس كل ما تقدم بأهون من حرب المسلمين في علومهم وعقولهم. ذلك أن أولئك القوم يريدون أن يتصرفوا فيمن ينزلون بينهم كما يتصرف الإنسان في البهيم الأعجم، ولا يمكنه ذلك وهو متعلم، لذلك إذا دخلوا جهة يعملون على تضييق دائرة التعليم إلى درجة تدهش من يعلمها حتى لا يجدون من يقف أمامهم حتى ولا بالكلام الذي ربما أدى إليه التعلم إن كان عالياً وصحيحاً.

